اقرُّوا بسرّ التربة وحفظوهُ الى عهدنا هذا وجعلوهُ لهم حتمًا لازبًا. ولسنا بهذا القول نقرّع من وقع في خلده ريب في هذا المعتقد لكنهُ يجب على كل ذي عقل ألّا يدع الشك ينتابهُ بدون ان ينقّب ويطالع ويسأل حتى يبني علمهُ على ركن متين لاسيما في امر ذي علاقة وثيقة المرى مع الحياة الآتية. نتوسّل اليهِ تعالى ان يهدي عبادهُ الى الصراط المستقيم انهُ سميع وعليم

غَرَق بغداد

لحضرة الاب انستاس الكرمليّ

إذا جُلتَ في العراق او ما جاورهُ من الآفاق واصغيت الى اقوال الناس لا تسمع منهم سوى حديث واحد هو حديث الغرق غرق بغداد. وقد اخذ الهلع من قلوبهم كل مأخذ إذ لا يعلمون اذا كانوا يموتون في هذه الساعة او بعد ساعات. او يكون ذلك نهارًا او ليلًا. وعلى كل فلا ترى احدًا قد طاب خاطرهُ او قرَّ ناظرهُ في هذه الايام لمشاهدتهِ طغيان مياه دجلة وخروجها عن حدودها وسدودها وانفجارها الى السهول والزروع والبساتين المحيطة بالفراتين من الجانبين

وكل من رأى هذا المشهد البديع والرائع معاً يُحب ان يقف على مثل هذا الحادث في سابق تاريخ بغداد ليقابل الحال بالحال وقد طلب مني بعض الاخوان ان ارصد مقالة في هذا البحث وان ادرجها في المشرق الاغر فلبّيت طلبهُ وكتبتُ هذه السطور . .

كان دجلة في سابق الزمان نهر يجري فيهِ كل خير وتنبع من مياههِ كل ثروة وكانت اراضيهِ مخزن الاطعمة لديار العراق وما جاورها من الاصقاع احتلَّ سقيهُ الاقدمون من مشهوري الذكر وخامليهِ ومن معروفين ومجهولين من كلدان وبابليين واثوريين وفرس وپرثيين وساسانيين ويونان وغيرهم. وكان هذا النهر او كما يقول اهل العراق هذا الشط يفيض عليهم بكل بركة ونعمة. وما كان يضرُّهم الّا نادرًا والنادر لا يدخل تحت حصر الحاصر. والسبب هو انهم كانوا قد شقُّوا منهُ عدَّة انهر تتفرَّع

منهُ فيدفع فيها دجلة مياههُ الزائدة فتفيد اراضي تلك القرى مما يفيض عليها من ذاك الماء المخلوط بالتراب الاحمر الخصب الذي يقوم للزرع مقام ماء وسماد فتقريع تلك الارضون وتاتي بالمثل مائة مثل. وكان الاقدمون يكرون تلك القنوات يعني يحفرونها كل سنة عند نضوب مياهها لكي لا تدفن من الرمال المسحولة عميق تلك الانهر والسواعد لانها تاتي بالويلات والمضرات عوضاً من النعم والخيرات. وكل امة قامت في هذه الديار او تغلبت عليها اتخذت هذه الوسائل المذكورة متسلمة اياها الواحدة عن الاخرى. وهكذا فعل الخلفاء العباسيون في اول عهدهم بالخلافة فكانوا من المهتمين كل الاهتمام بمثل هذه الامور العظام. ولما اخذ ظلّ سطوتهم بالتقلّص مائلاً الى الزوال بدا اثر ذلك في جميع اعمالهم ومشاريعهم. ومن الجملة العدول عن اتخاذ الوسائط اللازمة لكري الانهر الفرعية وتنظيفها من الرمال التي تجرُّها المياه لاسيما مياه الفيض في فصل الربيع من السنة

واول ما جاء ذكر فيضان دجلة بعد بناء بغداد وتدفّق مياههِ الى خارج حُدودهِ وعيثهِ بسهول بغداد ومنع المارّة من السفر في ارجائهِ كان في سنة ٢٢٠ هـ = ٨٣٦ م وذلك في شهر نيسان حينما كان المعتصم يُريد القاطول ويريد البناء في سامرّا فقد صرفهُ حينئذٍ عن قصدهِ كثرة زيادة دجلة فامتنع عن الحركة وانصرف الى بغداد الى الشماسية حتّى نزلت المياة الى مجاريها فعاد هو الى قضاء اعمالهِ. وعليهِ فلم يلحق دجلة ضررٌ بالمدينة الزوراء (راجع تاريخ الطبري ٣: ١١٨٤)

وفي سنة ٢٣٥ هـ = ٨٤٩ م تغيَّر ماء دجلة تغيرًا على خلاف المألوف وهو يكون عند اقبال الفيضان أو إقبال الامراض الوافدة كالوباء والطاعون والهيضة وكان لون مائهِ الى الصفرة فقزع الناس لذلك وتطيَّروا من هذا اللون المخيف ثم صار في لون ماء المدود وذلك في ذي الحجّة لكن العاقبة كانت محمودة وسكن جأش دجلة بدون ان يضرّ باحد (راجع الطبري ٣: ١٤٠٣)

وفي سنة ٣٦٨ هـ = ٩٧٨ م زاد دجلة زيادة مفرطة فغرق كثير من الجانب الشرقي والجانب الغربي واشرف الناس على الهلاك. ٥ اه عن دائرة المعارف في مادة بغداد:

وفي سنة ٤٦٦ هـ = ١٠٧٣ م كان الغرق لزيادة دجلة زيادة مفرطة فغرق الجانب

الشرقي وبعض الغربي وكان السيل قد جاء في الليل وطفح للماء من البرية مع ريح شديدة ودخل من المنازل ونبع من البلاليع والآبار فهلك خلق كثير تحت الردم ودخل الماء من شبابيك البيمارستان العضدي. (عن دائرة المعارف)

وفي سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م زاد زيادة مفرطة فاغرق الطرقات والغلّات الشتويّة والصيفيّة وغلت الاسعار. (عن الدائرة)

وفي سنة ٥٥٤ = ١١٥٩ م كثرت الزيادة في دجلة وخرج القُورَج (مجرى الماء) فوق بغداد فامتلأت الصحارى وخندق البلد ووقع بعض السور فغرق بعض القطيعة وباب الازج والمامونية. ودبّ الماء تحت الارض الى اماكن فوقعت واخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت المعبرة عدة دنانير ولم يكن يُقدَر عليها. ثم نقص الماء فكثر الخراب وبقيت المحالّ لا تعرف. وانما هي تلول فاخذ الناس حدودهم بالتخمين (عن ابي الفرج ص ٣٦٣)

وذكر هذه الزيادة صاحب الدائرة بقوله: وسنة ٥٥٤ هـ (وفي الاصل المطبوع ٤٥٧ وهو خطأ طبعي) كثرت الزيادة في دجلة فخرق السدود فوق بغداد واقبل المد الى المدينة فامتلأت الصحاري وخندق البلد واتسد الماء السور وخرقه وغرّق اكثر من ١٥ محلّة ودخل الماء تحت الارض فهدم بيوتاً كثيرة. ثم تهدّم السور وخربت المنازل وجُهلت المحال فكان الناس ياخذون حدودهم بالتخمين واما الجانب الغربي فغرقت فيه المقابر وانخسفت القبور المبنيّة وطفا الموتى على وجه الماء فغرق المشهد والحريميّة فكان من ذلك بلاء عظيم. اه

وفي سنة ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م زاد زيادة مفرطة لم يسبق لها نظير فقلق الناس اشدّ القلق واجتمع الخليفة والوزراء والعامّة على سدّ الثغور فغلبهم الماء ونبع من البلاليع والابار وغرق مشهد ابي حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدي وقرية الملكية والكشك وانقطعت الصلاة بجامع السلطان. واما الجانب الغربي فتهدم فيه اكثر القرية ونهر عيسى والشطيّات وخربت البساتين ومشهد باب التبن ومقبرة احمد بن حنبل والحريم الطاهري وبعض باب البصرة والدور التي على نهر عيسى واكثر محلّة قطفتا. وقد جرى اكثر من ذلك سنة ٧٢٥ هـ كما سيأتي في محلّه (عن الدائرة)

وفي سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م حدث مدّ دجلة مدًّا عظيماً هائلاً وغرق دورٌ كثيرة

وغرق سفينتان فهلك فيهما نحو خمسين نسمة . (عن ابن العبري ص ٤٣٩)

وفي سنة ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ م « زاد الدجلة زيادة مهولة فغرق خلق كثير من اهل بغداد ومات خلق تحت الهدم وركب الناس في المراكب واستغاثوا بالله وعاينوا التلف ودخل الماء من اسوار البلد وانهدمت دار الوزير وثلثمائة وثمانون داراً وانهدم مخزن الخليفة وهلك شيء كثير من خزانة السلاح (انتهى بحرفه عن طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥ : ١١٢)

ووصف رشيد الدين هذا الغرق وصفاً هذا بعض كلامه قال : « في اخر صيف سنة ٦٥٤ حدثت زيادة غير مالوفة فغرقت مدينة بغداد حتى ان الماء غطّى طبقة المنازل العليا . ودام الغرق في ذلك الصقع مدّة ٥٠ يوماً ثم اخذ الماء بالنضوب وبقي نصف ارض العراق غامراً وحتى اليوم (اي الى يوم الكاتب المذكور) يضرب اهل بغداد المثل بغرق خلافة المستعصم . وفي اشتداد هول هذه الطّامة الكبرى كان الاجاجرة وهم من اراذل الناس واشقاهم يهجمون على اهل المدينة ويظلمونهم ويأخذون اموالهم» . (انتهى معرباً عن الفارسية)

وفي سنة ٧٢٥ هـ = ١٣٢٤ م «غرق ماء دجلة ارض بغداد حتى صارت المدينة كالجزيرة وانحصرت الناس بها وخرب كثير من المحالّ في الجانبين . (عن الدائرة) . وفاق بكثير غرق سنة ٦١٤ و٦٥٤

وفي سنة ٧٥٧ طغى طغياناً فاحشاً فاخرب جانباً عظيماً من المدينة . وقد أرّخ هذا الحادث سلمان الساوجي ببيتين من الشعر الفارسيّ وهذا نصّهما :

بسال هفصد وپنجاه وهفت گشت خراب بآب شهر معظم كه خاك بر سرآب
دريغ روضهٔ بغداد ان بهشت آباد كه كرده است خرابش سپهر خانه خراب

ومعناهما في سنة ٧٥٧ هـ = ١٣٥٦ م خرّب الماء المدينة المعظمة اتمّ خراب حتى الله ذلك الماء . قوا أسفاه عليك يا بغداد يا روضة البلاد التي هدمت سماؤك ما هدمت وخربت ما خربت » . (عن كتاب گلشن خلفاء لمولفه مرتضى نظمي زاده ص ٩٤ و٩٥ من نسختنا الخطيّة)

وفي سنة ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٦ م امطرت السماء أمطاراً وابلة بل امطاراً طوفانيّة زادت مياه الفراتين بين دجلة والفرات واجتمعت مياهما في سهول العراق

فغطّت الاراضين والزروع المجاورة لولاية بغداد كلها فاحدثت من الاضرار والتلف ما لا يصفهُ وصف كاتب مُجيد. وكان ما يحيط بالقلعة يُشبه بحرًا غطمطمًا في وسطهِ جزيرة محصَّنة لا يقربها جندي باسل ولا يخرج منها احدٌ والركان من المتاديد الجبابرة وتدفق سيل الماء في خندق بغداد وكان يومئذٍ عميقًا على خلاف ما هو عليهِ اليوم وغدا « برج الفتح » (واسمهُ بالتركيـة فتح قلّه سي) وكان قريبًا من الباب الابيض نسيًا منسيًا او كانهُ لم يكن شيئًا مبنيًا. وفي عدة مواطن تهدَّمت الابراج وخربت الفصـلان حول المدينة وانسلع السور في مواضع مختلفة. فبـذل الوزير محمَّد باشا الخاصكيّ الاصفر الرنّان والابيض الفتّان بسماحةٍ لا تضاهى لا بل وبذل من التعب والنصب ما حبَّبهُ للناس كلهم اجمعين. وبعد الغرق اعاد بنـاء « برج الفتح » وسائر المواطن التي عبث بها الماء او اضرَّها التر او أخربها عن اخرها. وقد أصلح او بنى كل ذلك على أُسس متينة وأركان حصينة حتى ان جميع الرازة (جميع رازٍ وهو رئيس البنّائين) شهدوا لهُ بفضلهِ وحسن اعتنائهِ بالمباني وقد أرّخ اكبر شعراء بغداد يومئذٍ بناء ذلك البرج الضخم بقولهِ: « درزدي برقلهٔ ممتازي محمَّد باشا ». ومعناهُ: « أعاد بناء هذا البرج الممتاز محمَّد باشا » ومجموع حروفهِ التركيَّة تساوي ١٠٦٨ وهي سنة ترميم البرج المذكور وهي السنة الموافقـة لسنة ١٦٥٧ او ١٦٥٨ م

وفي ذلك الاوان تنفَّس الوزير نفسهُ من طغيـان الرافدين والغرق الذي شمل انحاء المدينة فبرح الحلة المعروفة « بالمنطقة » وذهب فسكن قصرًا عامرًا كان واقعًا في غربيّ بغداد. وقبل ان يأخذ الغرات بالرجوع الى عقيقهِ بعد شرودهِ عنهُ وجد في تجوالهِ في عدة محلات من احياء المدينة مُندقعًا يدفع فيهِ مياههُ قريبًا من المنطقة. وللحـال نشأت انهر سريعة الجري حالت دون تجوّل الناس في حوالي دار السلام ولهذا انحصروا في دائرة ضيّقة النطاق لا يستطيعون ان يخرجوا منها ولا ان يرجعوا اليها ممن خرج منها قبل ازدياد المياه. فامر الحاكم ان تُلقى عدة جسور على تلك الانهار لتجمع بين المواضع والبيوت والمحلات القريبـة. وفي بعض المواطن التزم الاهلون ان يتخذوا أكلاكًا (أطوافًا) وزوارق وقففًا وسفنًا ليعبروا من مكان الى مكان آخر

هذا وان الباشا افضت بهِ الحـال الى ان يضرب خيمهُ في نفس ذلك الموضع وحشد هنـاك جمًا غفيرًا وسخرهم ليقيموا سدودًا محكمة عظيمة هائلة الكبر تمكّن

الناس من المسير والتجوال في اهمّ المواضع من المدينة . وكان الوزير نفسهُ قد دبَّر رسم هذه السدَّة كما انهُ قوّى سائر السدود والمسنَّيات الموجودة في عدة مواضع واحكم بناءها . ولذا بقيت تلك الآثار مدة سنين طويلة تشهد على ما كان لذلك الوزير الهمام والسيّد المقدام من الايادي البيضاء على مدينتنا الزوراء

زراعة قصب السكر

للشاب الادیب میشال افندي الياس سماحة

ممَّا لا يختلف في شأنهِ اثنان ان على الزراعة تتوقف حياة البلاد وعلى نموها تترتَّب سعادة الاهلين وازدياد الثروة والتقدم والعمران . واي ارض حلَّها الخصب خفقت فوقها أعلام الرفاه واليسر والهناء والبشر . قال ابن حزم الاندلسي : « اعلموا ان الراحة واللذة والسلامة والعز والاجر في اصحاب فلاحة الاراضي وفلاحة الاراضي اهنأ المكاسب جملةً » . ويُروى انه قيل لابي هريرة : ما المروَّة . فقال : تقوى الله واصلاح الضيعة . ولا يخفى ما في هذه الاقوال من المعاني الجليلة والتعابير البليغة . ومن اقوال الدكتور فيجري بك الكيماوي الشهير في كتابهِ علم الزراعة ما يأتي : « ان الزراعة متى جعل لها نجاح وتقدَّم اتسع بها نطاق التجارة فتتمتع جميع الناس بذلك وتتقوى الصناعات الاخرى فلا يحصل تقدّم في التجارة كما ينبغي الّا اذا اتقن فنّ الزراعة » . وهو قول يشير الى ان الزراعة هي المصدر الباعث للعمران والترقي فعلى المحصولات الزراعية تقوم في كل واد دولاب الاعمال في المعامل والدور الصناعية . ولذا قد شبَّه الاقدمون تربة الاراضي الزراعية الخصبة بالتبر وعنوا عن طينها بالذهب الابريز وعن سمائها بالباعثة للخيرات والجائدة بالنعم والبركات الى غير ذلك من الاسماء والنعوت الحسان

هذا ولمَّا كان على الزراعة قيام الحياة والمعيشة لكل انسان . وبدونها ضياع وهلاك كل حيوان فلذلك لا تزال كما كانت منذ القدم موضوع اهتمام الشعوب والامم ومحور الاختبار والعمل والدرس لكثيرين من العلماء المبرزين الذين قد اتقنوا فنونها واضافوا الى دروسها جملة من العلوم كعلم الفيسيولوجيا والنباتية وعلم الحيوان وعلم الميخانيكا